«الفن ، الجمهور .. علاقة ؟» (١)

عقيل سوار: أنا لست من هواة الترف !!

يجب ان يتوجه المسرح الى كافة الناس !!

لا شك ان مفردتي «الجمهور» و «الفن» مفردتان شائكتان جدا، خاصة اذا ما اضيفت احداهما الى الاخرى. إذ ان حالة الاضافة ـ في أحد وجوهها ـ تعني التخصيص. والتخصيص ـ بداهة ـ هو ضد الاطلاق.

■ عقيل سوار ■

وبما ان الحديث عن «الفن» و «الجمهور» اصبح حديثا ساخنا بين المبدعين، إذ انه يتعلق بأهم مشكلات الابداع حساسية، وهي «مشكلة التلقي» وبما ان المتحاورين ينقسمون الى فريقين مختلفين، يرى احدهما ان الفن (الجيد) هو الذي يتوجه الى الناس كافة، ويرى الفريق الاخر ان هذا الشرط هو غير قابل للتحقيق.

اقول: بما ان الحديث اصبح ساخنا وشائكا، فلقد رأت «الاضواء» أن تفتح ملف «الفن/الجمهور.. علاقة» امام المبدعين، على اختلاف ابداعاتهم: (شعر، مسرح، موسيقى، تشكيل، قصة قصيرة، رواية.. الخ) ليدلوا بآرائهم، بادئة ـ أي الاضواء ـ بالفن المسرحي من خلال الكاتب المسرحي عقيل سوار.

*** عقيل سوار.. هل انت ممتنع الان عن كتابة المسرح ؟**

ـ لا .. طبعا، لست ممتنعا !!

*** اذن.. اين انت منذ عملك الاخير «بنت النوخذة».**

ـ في الحقيقة.. لقد انتهيت قبل قليل من كتابة مسرحية جديدة عنوانها «سوق المقاصيص» كما انني اعدت، مؤخرا، كتابة اكثر من عمل مسرحي. كنت قد كتبته منذ زمن ولم اقدمه الى خشبة المسرح، امثال: «شجرة الحياة» وهي مسرحية للاطفال تدور حول ملحمة جلجامش، ومسرحية «طالق بالثلاث» التي اعدت تسميتها ـ ايضا ـ الى «افا يا عبيد» كما انني الان اعكف على كتابة نص مسرحي جديد. ولا شك ان هذا يعني انني لست ممتنعا عن الكتابة.. الكتابة التي لا يمكن ان اتخلى عنها في يوم من الايام.

*** يقال ان عقيل سوار شديد التأرجح بين التجريب والمحافظة، فبعد ان قطع شوطا تجريبيا في «البراحة» و «رجل من عامة الناس» عاد الى المسرح بشكله التقليدي في «بنت النوخذة».. فهل هذا صحيح ؟**

ـ ببساطة.. هذا القول غير صحيح، لانك لو اخذت اعمالي في مجملها لاكتشفت انها (جميعا) تدور في نسق واحد.. هو نسق عقيل سوار.. وحتى لو افترضنا ان هذا الطرح صحيح، فلا شك ان القياس العددي سيقول ان «البراحة» (فقط) هي العمل الوحيد الذي يمكن ان نطلق عليه انه عمل تجريبي لم يلتزم بالاطر الكلاسيكية للدراما.

وهي في الحقيقة ـ اي البراحة ـ لم تأت وفقا لتخطيط واع بعملية التجريب، وانما جاءت بشكل تلقائي حسب فهمي في تلك الفترة للفن الذي ماربيته من خلال: التشكيل، التصوير، المسرح.

*** هل يعني هذا انك ضد التجريب ؟!**

ـ لا.. ابدا، انا لست ضد التجريب كمفهوم مطلق للمسرح، ولكنني ضد التجريب في مسرحنا، فنحن حتى الان لم نستكمل الادوات الاساسية لقيام مسرح او حركة مسرحية في البحرين. وفي اعتقادي ان احدى اهم هذه (الادوات) هو الجمهور.. فلنقدم الى هذا الجمهور ـ اولا ـ اعمالا الف مثلها في السينما والتلفزيون والمسرح، قبل ان نبدأ في استعراض عضلاتنا في اعمال تجريبية، لا ارفضها، ولكنني لا اعتقد انها تستوفي الشروط الموضوعية المطلوبة لحالة المسرح في البحرين.

*** يعني هذا انك تريد ان تبدأ مع الجمهور البحريني من الصفر ؟!**

ـ في الحقيقة ان موقع جمهورنا بالنسبة للمسرح ـ حتى الان ـ يقع في (خانة الصفر) او ما بعد الصفر بقليل، وهذا يستدعي بالضرورة ان نبدأ من موقع قريب.

ولكن هذا ـ ايضا ـ لا يعني ان نقدم للجمهور ما يريده بناء على تجارب وتفاعل خاطىء في الاساس بين هذا الجمهور وبين نمط ساقط من الفن يدعمه ويروج له الاعلام والمؤسسات التجارية. وانما نأخذ بعين الاعتبار، وان نحاول الابداع مستجيبين لشروط هذا الواقع وشروط العملية الفنية. كما نفهمها نحن، او كما تفهمها الشريحة القليلة من المثقفين.

اعرف ان هذه محاولة صعبة، او ربما كان فيها شيء من التبسيط، ولكننا مادمنا نطلق على العملية المسرحية تسمية الابداع. فان الابداع من وجهة نظري يجب ان يلم بكل الشروط الموضوعية، وان لا ينطلق انطلاقا ذاتيا.

*** عقيل.. الا ترى في كلامك هذا تعاليا على الجمهور ؟!**

الا ترى انك تجمع بين صغر حجم التجربة المسرحية في البحرين وبين محدودية وعي الجمهور البحريني بالمسرح، وكان وعي هذا الجمهور قد تشكل فقط من خلال مشاهدته للمسرح البحريني ؟! الا ترى انك تهدر امكانية ان يكون جمهور المسرح بالبحرين مرتفعا (بكثير) عن درجة الصفر، وعن امكانيات التجربة المسرحية في

ـ في الحقيقة.. ما اقوله هو عكس ما تقول، فانا لست متعاليا على الجمهور.. فالتعالي في نظري ـ يعني ان انظر الى الشيء باعتباره ساقطا وان ارفض التعامل معه. اما ان انظر الى مشاكله، وان اتعامل معه محاولا النهوض به، فهذا ليس تعاليا.

اما القول بأن الجمهور عندنا واع، فهذه مقولة اعتقد ان كل الوقائع ليست في صالحها. فنسبة الامية لدينا كبيرة، الامية التعليمية او الامية الثقافية. كما ان تجربتنا المسرحية محدودة جدا، وعلى الرغم من محدوديتها بدأت بداية متعالية على الجمهور، لم تستطع التفاعل معه. وبالمقابل هناك كم هائل من الاعمال الساقطة التي شكل تراكمها حسا بليدا او ذوقا محدودا اضافة الى فهم سلبي للمسرح وماهيته.

*** هل يعني هذا انك ترى ضرورة ان يتوجه المسرح الى كافة الناس ؟!**

ـ طبعا.. هذه مسألة محسومة كموقف اخلاقي، كموقف موضوعي، وكموقف فني.

*** هذه (العمومية) الا ترى انها قد تضر بالعملية الابداعية، باعتبارها عملية خاصة تتنوسل بأدوات خاصة، وبالتالي فهي تفترض ان يكون متلقيها متسلحا بوعي خاص.. وعي بجمالياتها النوعية !!**

ـ اعتقد انها قد تعيق العملية الابداعية، فهذه مسألة لا شك فيها.. وبالمقابل فان الرقابة الرسمية والاجتماعية يمكن ان تعيق العملية الابداعية بنفس القدر. ولكن هذا لا يعني ان نتعلل.. لا بالرقابة الرسمية، ولا بالرقابة الذاتية تحت مظلة «خصوصية الابداع» فانا اعتقد ان الفن عامة، والمسرحة خاصة، هو عملية اعطاء وتلقى متفاعلين، فاذا فقد هذا التفاعل في العملية الفنية اصبحت ترفا.. ولست من هواة الترف !!

*** ما اقوله هو ان المسرح، كأي فن، له ادواته الخاصة التي يجب على متلقيه ان يكون متسلحا بها او ببعضها على الاقل لكي تتم عملية التفاعل التي تشير اليها.. هذه الشروط ـ في رأيي ـ تنفي (عمومية) التلقي..**

ـ ما تقوله شيء، وما هو واقع امر مختلف.. فالجمهور عندنا غير مسلح للاسباب التي اوردتها سابقا. لذا فعلينا ان نأخذ واقعة في الاعتبار دون التمسك بقوالب جاهزة قد تصدق في ظروف معينة، لكنها لا تصدق في ظروف اخرى.

*** اعتقد ان سبب المشكلة المثارة الان،هو انك لا تؤمن بأن المسرح، كأي فن، يتطلب جمهورا ذا وعي خاص بجمالياته. اما انا فأؤمن بهذه الخصوصية..**

ـ نعم.. هذا صحيح، واذا صدق رأيك ـ وهو صادق ـ فيجب علينا ان ننظر نظرة واقعية بسيطة الى عدد سكان البحرين ونفرز منهم المتعلمين، ثم نفرز من المتعلمين المثقفين، ثم نفرز من هؤلاء النخبة التي يهمها المسرح كفن ابداعي، لكي نخرج في النهاية بحصيلة مفادها ان جمهور المسرح هم العاملون فيه فقط لا غير !!

■ مسرحية «البراحة» ■

اشتقت العرب من جلدها كل معنى للسيادة والشجاعة فالسواد والسؤدد بمعنى واحد وسواد الناس معظمهم وسواد العراق افضل ارضه . والعربي سيد السادة فهو أسودهم وأشجع الرجال فهو أسدهم ومن أشعر أسماء العرب : أسود وسوداء . وواضع نحوهم : أبو الأسود الدؤلي

بقلم: د. سليمان العطار

الاسود عربي !

أعرف كيف جاءتني فكرة هذا المقال ! هل صرت عنصريا مثل إخواننا البيض ـ والعياذ بالله ! ـ حتى أخوض في لون بشرة خلق الله على طول كل هذه السطور ؟! أم لعله دأب الانسان في الكشف عن نفسه وتعرية الذات .. ذاته الصغرى الفردية وذاته الكبرى ، ذات أمته ، وهو دأب يلح على عقول الأدباء ويعيش في قلب الأدب . وأدب كل أمة من الأمم يسعى جاهدا الى تحديد شخصية تلك الأمة . وكان هذا هو شغل الأدب العربي الشاغل ولا سيما الشعبي منه . ان السيرة الشعبية عند العرب تمثل ـ وظيفيا ـ لديهم ما مثلته الملحمة اليونانية . ومن ثم فإن الوظيفة الاساسية التي تعارف عليها دارسو الأدب الشعبي للملحمة ، هي تأكيد ذات الأمة وتحديد ماهية شخصيتها . واذا ضربنا مثلا حديثا صارخا لهذه الوظيفة الملحمية ـ أو السيرية اذا استعملنا المصطلح العربي ـ فإن سيرة الكالبجالا وعلاقتها بوحدة الشعب الفنلندي وتحقيق هويته ونيل استقلاله لهي برهان صارم على وظيفة الملحمة في مصطلح الغرب أو السيرة في مصطلح العرب .

ومن هذا المنطلق نتناول بالدراسة النقطة الأساسية لموضوع هذا المقال في ثلاث سير، هي الهلالية وعنترة بن شداد والأميرة ذات الهمة.

أما النقطة الأساسية وحجر الزاوية في هذا المقال فهي القوة الرمزية للون البشرة وما يتبعها من خصائص للشخصية البطولية في الملحمة العربية التي اصطلح الشعب على تسميتها سيرة . لقد تواضعنا جميعا في حياتنا اليومية المعاصرة على ان العربي أسمر . وقد تم التركيز على فكرة السمار حتى في أغانينا التي يرددها المذياع كل يوم . ولعل أطرفها تلك الأغنية التي ألفها الامير السعودي السعود الفيصل وتغنى بها العندليب الاسمر عبدالحليم حافظ :

سمراء يا حلم الطفولة
يا منية النفس الحزينة

اننا في مفهومنا لسمار العربي نكاد نعبر تعبيرا علميا عن لون البشرة السائد بين العرب كواقع مادي وثقافي ، ولكن الأدب الشعبي لا تعنيه تلك العلمية الدقيقة التي تبناها الشعر الحديث وأعطاها مفهوما شاعريا عاطفيا ، وجعلها قيمة عربية من قيم الجمال الانساني بين المرأة والرجل على حد سواء . لقد اعتنت السيرة بما يمكن ان يحمل اللون الأسمر من رمز . واللون الاسمر عاجز عجزا شديدا عن ان يتوازى بوضوح مع أحدى حقائق الواقع ليكون رمزا حسب مفاهيم النقد الادبي للرمز ، لانه في الحقيقة عبارة عن مزيج بين اللون الابيض واللون الاسمر . ولهذا فكان على السيرة ـ التي تقوم دائما على بطل ايجابي يناضل بطلا آخر مقابلا لتحقيق وحدة الامة واثبات ذاتها ـ ان تختار بين أحد الابيض أو الاسود ، ولا يوجد خيار ثالث !

ولما كانت نشأة السيرة ترتبط ارتباطا شرطيا بانهيار الامة العربية وتداعي عن أسمى ما لديها : عرضها ووجودها . ويحتضن المتبارزان ، وتهلل العرب لبطل بني هلال أسود البشرة ، الزنجي سلامة . ان اكتشاف الابن يلغي الاب فقد احتل مكانه في قيادة الهلالية العسكرية . والالغاء استيعاب وانجلاء للاصل العربي .

واذا انتقلنا الى سيرة عنترة ندرك بعدا آخر لمفهوم البنوة والبطولة ، ولرمزية اللون الاسود في التراث العربي .

ان السيرة العنترية تجلب أما سوداء حبشية لبطلها حتى تؤكد سواده وزنجيته الرمزية ، وكأنما تريد السيرة الا تدع مجالا للشك عند السامع في (سواد) عنترة ! وشيء غريب في كل السير العربية لا بد ان يولد البطل غريبا منبوذا غير معترف به يعاني أمر الويلات ، وأسوأها في هذه السيرة عبودية البطل رغم انه ابن سيد العرب الامير شداد . ولكن هذا البطل الجاهلي ـ الذي شاعت السيرة في امتدادها الزماني والمكاني ان تجعله يدافع عن الاسلام ويحارب الكفار ـ يثبت أصالة اللون الاسود وشجاعته ، وأيضا حميته وانسانيته حين يصبح الامل الوحيد لقبيلة عبس ومعها عدد من القبائل العربية الاخرى في الدفاع عن الديار وحرماتها وفي معالجة الحب في نبالة وعمق . ان سيفه وحبه شكلا حافز لاكتشاف بطولته فيعترف الاب بالبنوة ، ومعه العرب تعترف بأنه رمز لوجودهم في دفاعه عن الوطن والشرف.. والوطن والشرف يعكسهما موضوعا كل ملحمة الحرب والحب ، وارتباط الحرب بالحب هو ارتباط للوطن بالشرف . والاعتراف بالبنوة هنا ذو طرافة تأتي من أهميته الخاصة في تفريقه الحاسم بين

جاءت بشكل تلقائي حسب فهمي في تلك الفترة للفن الذي مارسته من خلال: التشكيل، التصوير، المسرح.

*** هل يعني هذا انك ضد التجريب ؟!**

ـ لا.. ابداً، أنا لست ضد التجريب كمفهوم مطلق للمسرح، ولكنني ضد التجريب في الظروف الموضوعية التي يعيش فيها

بالمسرح، وكان وعي هذا الجمهور قد تشكل فقط من خلال مشاهدته للمسرح البحريني ؟! ألا ترى انك تهدر امكانية ان يكون جمهور المسرح بالبحرين مرتفعا (بكثير) عن درجة الصفر، وعن امكانيات التجربة المسرحية في البحرين ؟!

كل يوم . ولعل اطرفها تلك الاغنية التي ألفها الامير السعودي السعود الفيصل وتغنى بها العندليب الاسمر عبدالحليم حافظ :

سمراء يا حلم الطفولة
يا منية النفس الحزينة

واقعية بسيطة الى عدد سكان البحرين وتغرز منهم المتعلمين، ثم تغرز من المتعلمين المثقفين، ثم نفرز من هؤلاء النخبة التي يهمها المسرح كفن ابداعي، لكي نخرج في النهاية بحصيلة مفادها ان جمهور المسرح هم العاملون فيه فقط لا غير !!

السيرة ـ التي تقوم دائما على بطل اسيابي يناضل بطلاً آخر مقابلا لتحقيق وحدة الامة واثبات ذاتها ـ ان تختار بين أحد الابيض أو الاسود ، ولا يوجد خيار ثالث !

ولما كانت نشأة السيرة ترتبط ارتباطا شرطيا بانهيار الامة العربية وتداعي حضارتها امام الهجمات الصليبية المستمرة التي انطلقت شرارتها في الأندلس وانتهت في قلب تلك الأمة ، وهي القدس ، فإن العدو الحقيقي والذي سيكون بالضرورة كامنا داخل العرب أنفسهم في شخص كل من تحمل بشرته اللون الابيض من العرب وغير العرب . اننا نصف اصدقاءنا فنقول عن فتاة انها بيضاء مثل السنيورة وعن الفتي بأنه «خواجة أو له وجه اوربي» .

اذا كانت هذه هي مواصفات البطل المقابل الذي يهاجم العرب من بينهم أو من خارجهم فيبدد جمعهم وينتهك حضارتهم فإن البطل الاساسي لابد ان يكون نقيضه تماما ولا بد ان يتصف بأصالة عربية مطلقة لا يرقى اليها الشك ولا تعرف مزيجا بين أبيض (غير عربي) وأسود (عربي) .

من هذا المنطلق يبدأ الميلاد التراجيدي (المأساوي) في الهلالية لأبي زيد الهلالي سلامة (وعلى فكرة .. اسم سلامة اسم كثير الشيوع في السودان ولا سيما على شاطىء البحر الاحمر) مع كل النبوءات التي تتحدث عن ولد عبقري للشريفة خضرة زوجة أمير العرب رزق ، وهما زوجان اتفقا في بياض بشرتهما سيلدان مولودا ـ كما تقول السيرة ـ أسود غطيس يشبه الصقر الاسود .

إن تحقق النبوءة أثار الذعر بين الهلالية وجعلهم ـ بما فيهم الامير رزق ـ يتهمون الشريفة في شرفها ، ويؤكدون انها خانت زوجها وشرف نسبها مع عبد أسود هو بالضرورة أب لهذا المولود الاسود . ويتم التآمر على قتل المولود والوالدة ودفن هذا العار ، لولا ان العناية الالهية ترسل الخضر فيقوم بمناورة بارعة تنتهي بانقاذ الشريفة ووليدها ، ليتربى البطل في أرض غريبة ، وابنا لأب غريب ، قبضه الله للجنو عليه والرفق بأمه المنفية ، وكأننا أمام أوديب آخر عربي ، سيأنف من قتل أبيه وسيلتصق بأمه التصاق الابن يتيم الأب الذي يقوم من أمه مقام الزوج من حيث الحماية والرعاية والاجلال . ان أوديب العربي عكس أوديب اليوناني فهو ابن أصيل ينطبق عليه المثل «الدم يحن» . وسيكون رفقه بالأب ـ الذي طرده ، واجلاله للأم صفتين اثنتين من سلسلة من الصفات الغيبية للفروسية العربية ذات النفس الصوفي التي تتمثل في الاسود الرامز للبطولة العربية .

وفي مرحلة اساسية من مراحل السيرة ـ التي تتكرر في كل ما لدينا من سير ـ يتم الاعتراف بعروبة البطل الاسود ـ والاعتراف بالعروبة دائما في السير اعتراف بالبنوة . وهذا له مغزاه في فهم ماهية العربي وهويته : فهو يكون ابنا لعربي حتى لو لم يتكلم العربية . ولعل هذا يفسر تلك العروبة المتحمسة للجيل الخامس للمهاجرين العرب في أمريكا الجنوبية . إن أبا زيد يلتقي مع أبيه ـ دون ان يعرف احدهما الآخر ـ في مبارزة لا تكاد تنتهي فكما نال مقتلا من الأب ـ المجهولة أبوته ـ تجنب قتله ، حتى احتار الأب ودار ، ولكنه يرى وجه زوجته تطل على المعركة وينجلي السر . ان العاطفة الجياشة التي ملأت قلبه تجاه البطل الذي لا يريد ان يقتله أصبحت تفسيرا لحلم دائم : انه الزوجة المحبوبة المنفية والابن معا . وفوق ذلك فهذا الابن هو البطل الذي انتظرته العرب كثيرا للدفاع لوجودهم في دفاعه عن الوطن والشرف . والوطن والشرف يعكسهما موضوعا كل ملحمة الحرب والحب ، وارتباط الحرب بالحب هو ارتباط للوطن بالشرف . والاعتراف بالبنوة هنا ذو طرافة تأتي من أهميته الخاصة في تفريقه الحاسم بين العربي واليهودي ـ وهو أمر نحتاج للوعي به اليوم . البنوة عند العرب تشترط ان يكون الأب عربيا والبنوة عند اليهود تشترط لهوية اليهودي ان تكون الأم يهودية .

ان درس السواد عند عنترة يضيف الى ما عرفناه عند أبي زيد الهلالي من خصائص لسواد العربي الأبوة العربية بجانب السواد كشرط للعروبة . ان شخصية عنترة الاسود تمثل للعربي أفقا وأملا دائما للتحرر من العبودية للبيض بما تحمله ذات الاسود العربي من نبالة وفروسية وصفات تصنف العربي بين بني الانسان كما صنفت كليلة ودمنة الأسد بين الحيوان وأظن ان مادة اشتقاق أسد هي نفس الاصل الاشتقاقي للأسود وان اختلفت مع المعاجم فمعيار البطولة في السيرة والقصص العربي ان يغيب الأسد في الأسود .

واذا استعرضنا سيرة الاميرة ذات الهمة ، فإن همة تلك الأميرة هي ارضاع ابنها عبدالوهاب الاسود معنى لونه الاسود . ان هذا المعنى بطولة عربية تجبر الأب على الاعتراف به وتجبر العرب ان يلوذوا تحت رايته وينتهي كعادة كل السير نفي الابن (الشعب العربي الاسمر) والا (الارض التي انجبت الشعب وأرضعته لونه وقيمه) وظهور الاب (الاصل العربي) .

ومن هنا اذا جمعنا جمعا رياضيا بين ابي زيد وعنترة وعبدالوهاب ندرك دور الام في نظر العربي لتشكيل عروبة الانسان . ان الام ليست شرطا للعروبة من حيث الدم والوراثة ولكنها ـ وان لم تكن عربية ـ الوعي المضيء بهوية الابن والرمز المتمثل في لبن أمومي يحمل ثقافيا كل شروط الاب الغائب دائما في تشكيل المزاج العربي والقيم اليعربية داخل الابن الاسود الذي يتجمع في اهابه كل السمار العربي فيتحول الى لون الطين الذي طالما حملته الأنهار العربية .

واذا اختبرنا فكرة السواد وارتباطها بالعروبة في المأساة الاندلسية نجد ان الشعر الاندلسي قد خالف المألوف في الشعر . فقد تحدث الشاعر الاندلسي عن معارك دائمة بين الليل والنهار . وقد وقف الشاعر العربي بكل عواطفه مع انتصار الليل وحينما كان ينتصر النهار يعبر عن حزنه العميق . فالليل أسود وهو العربي والنهار هو الاسباني الشمالي الاشقر . أن كل الشعراء ينتظرون الفجر وينتصرون للنهار أما شعراء الاندلس فقد عاشوا في ليلهم العربي السرمدي حتى اليوم وانتصروا بكلمتهم العربية الخالدة على الهزيمة التي أكلت الاندلس ماديا وأبقته في ضمائرنا تراثا عربيا نعتز به ويضيء أحلامنا الرومانسية العربية ويجعلنا ندرك قيمة الشعر والشعراء .

هل كان اللون الاسود رد فعل عميق لعداء ذوي البشرة البيضاء للعرب أم ان هناك عرقا أفريقيا بعيدا في الجذر العربي يتمثل في مغربنا العربي ذي الجذور العربية والافريقية على حد سواء . اليست مراكش هي آخر حدود الوطن العربي وهي الفيصل في أن بين افريقيا وأوربا . أخيرا : ومن يتصور ان البحر الاحمر شرط كاف للفصل بين جزيرة العرب مهد العروبة وبين أفريقيا مهد السواد .